(٧)

ذكريات الطريق..!*

د. سعد محمد الهجرسى

فى ربيع العام الماضى (١٩٩٥) رحل إلى الرفيق الأعلى الدكتور/ السيد محمود الشنيطى، ونحن الآن فى بداية عام جديد (١٩٩٦)، نعيش بدونه هذه الأيام الحافلة من حولنا، بمعرض القاهرة الدولى للكتاب، وهو المعرض الذى كان الراحل العظيم فيه ملء السمع والبصر والفؤاد، وفارسه الأول لعدة سنوات خلال السبعينيات... كما أن أيام هذا المعرض نفسه شهدت ولادة العدد الأول من مجلة (عالم الكتاب) منذ اثنى عشر عاماً، وهى القناة الفكرية التى تعرف أكثر من غيرها حقوق هذا الراحل العظيم، وتقدر منزلته الفريدة فى نفوس الآلاف من أفراد أسرتها الكبرى بمصر والخارج، ولهم على أسرتها الصغرى حق الرعاية والتقدير للشخصيات الأثيرة عندهم. ذلك أن الكتاب بأوسع معانيه وأبرز مؤسساته، وهو الطريق الملكى الذى اختارته المجلة مساراً لها وقطعت فيه شوطا محموداً، هو الطريق نفسه الذى يشهد للراحل العظيم أنه أشهر رواده العرب وأبرزهم مكانة..! كما أنه كذلك هو الطريق الذى وجد فيه نفسه أيضا، منذ أربعين عاما أحد الإخوة فى تلك الأسرة الصغرى، وعرف خلالها منذ البداية عطاءات هذا الرائد الكبير والزميل الكريم والصديق العزيز..! وهو يحمد الله أن عودته للكتابة بعد الانقطاع لعام كامل، إنما تبدأ لتسجيل ذكرياته على ذلك «الطريق» المشترك..!

حفل الطريق الملكى للكتب والمكتبات على المستوى العالمى خلال تلك العقود

*عالم الكتاب. ـ ع ٤٩ (يناير/ فبراير/ مارس ١٩٩٦). ـ ص٤ ـ١٢.

الأربعة، بما لا يمكن حصره أو إحصاؤه من الأحداث والتطورات والمشروعات، ويكفى لتقدير ذلك فى صورة إجمالية الرجوع إلى الأعمال والتقارير السنوية للجمعيات العلمية والمؤسسات المهنية والمكتبات الكبرى، التى يعمر بها ذلك الطريق الواسع. وإذا كانت هناك فئة محدودة العدد من القيادات فى كل دولة أو منطقة، تدرك الأحداث على الطريق وتتنبأ بتطوراتها، وتضع المشروعات وتقود العاملين فى تنفيذها، فقد كان الدكتور الشنيطى ألمع القيادات فى تلك الفئة بمصر والوطن العربى الكبير، بما دعا إليه ومارسه من المشروعات والأعمال داخل القطاع الحكومى وخارجه. وليست هذه الافتتاحية بفقراتها المحدودة ولا «كلمات التأبين» بعدها ولا «العمل التوثيقى» بنهاية الملف الثلاثى الحالى عنه، هى الأوعية الملائمة لعرض تلك المشروعات أو تقدير هذه الأعمال، ولكنها معًا ليست أكثر من مبادرة صادقة تهديها (عالم الكتاب) وأسرتها إلى روح الفقيد العظيم..!

ذلك أن العرض الدقيق لأعماله والتقدير العلمى المأمول لعطاءاته، إذا كان أول حقوقه وأبقاها تجاه أترابه وأبنائه وأحفاده، العاملين فوق الأرض العربية للمكتبات والمعلومات، فإن الأداء السليم لهذا الحق يتطلب الدراسة المتأنية التى تنال نصيبها الوافى من الوقت والجهد، والمساحة الكافية والنمط الملائم من النشر الباقى فى المنفردات، ولست أستبعد بل إننى أدعو وأحبذ أن يكون ذلك فى قنوات الرسائل الجامعية أو فى مستواها، بواحد من الأقسام المؤهلة لأداء هذا الواجب بحثا وإشرافا...! كانت أولى الرسائل فوق تلك الأرض العربية عام (١٩٦٠) عن المكتبات العامة فى مصر، التى بحث موضوعها وكتبها راحل عظيم سابق عام (١٩٩٢)، هو الدكتور أحمد أنور عمر رحمه الله، ثم توالت الرسائل بعدها وتكاثرت خلال بضعة وثلاثين عاما، بمعدل يبلغ بضعة رسائل كل عام. بل إن هناك مثل ذلك المعدل أو أكثر موضوعات سجلت للدراسة ثم شطبت، أو ماتزال قيد البحث والإعداد، سواء فى القسم الأم بجامعة القاهرة أو فى بضعة أقسام أخرى بمصر، بجانب ما قد يضاف إلى هذا العدد من الرسائل فى بعض البلاد العربية الأخرى شرقا وغربا.

ومن الطبيعى أن الموضوعات فى تلك الرسائل قد تشعبت فى اتجاهات عديدة تقليدية أو جديدة، متأثرة بما يجرى فى هذا التخصص من القضايا والمشكلات فوق أرضنا، أو

متابعة للاتجاهات المتجددة بالخارج فى البلاد المتقدمة وبعض البلاد النامية. وليس يوجد فيما أعلم بين الرصيد العربى للرسائل المجازة أو المشطوبة أو تحت البحث والإعداد رسالة، تجعل المرتكز فى موضوعها هو الأعمال الميدانية أو العطاءات الفكرية، لإحدى الشخصيات الرائدة أمامنا فى المجال ممن انتقلوا إلى الرفيق الأعلى..! وتدور وستدور عجلة التسجيل للبحوث، خلال الأعوام القادمة القريبة والبعيدة، فى الشبكة الأكاديمية المتنامية بالعاصمة والأقاليم، للدراسات العليا فى تخصص المكتبات والمعلومات، بالمزيد من البحوث والموضوعات..! فهل لا يزال الوقت مبكراً لتساؤل أو تساؤلات ألحت على صاحب هذه المادة، فى سياق القيام بالواجب المبدئى حاليا نحو الدكتور الشنيطى..!..؟

لماذا لا نفكر منذ الآن فى تشجيع بعض الدارسين على اختيار الأعمال والعطاءات، لبعض الشخصيات الرائدة فى التخصص، فتكون هى الموضوع الذى يسجل للحصول على الدرجة العلمية..؟ هل هذه الفكرة مقبولة أولا من حيث المبدأ..؟ أو هى مرفوضة تماما..؟ أو هى مرفوضة حاليا..؟ ولماذا فى هذا أو فى ذاك أو فى ذلك..؟ لست أريد أن نفتح الباب على مصراعيه لهذا النمط من الرسائل..! ولكننى أقول: إن الوقت قد حان بعد عشرات السنين ومئات الرسائل لطرح هذا الاقتراح، وقد مضى إلى الرفيق الأعلى نفر غير قليل، ممن قاموا بأدوار لها قيمتها فى مجال هذا التخصص..! علينا أن نتدارس الاحتمالات والإمكانات والأسس المنهجية لتنفيذه، وأن نحيطه إذا لقى القبول من حيث المبدأ، بالضمانات التى تجعل مثل هذه الرسائل، لبنات أصيلة نعتز بها فى الرصيد الأكاديمى العربى لتخصص المكتبات والمعلومات...! ومن المؤكد أن ذلك لن يكون بدعاً فى حقل الرسائل الجامعية، فهناك كثير من التخصصات الأدبية والإنسانية والعلمية، التى وفرت لنفسها سلسلة من الرسائل المرتبطة بشخصيات، كان لها عطاؤها الميدانى أو الفكرى عن موضوع التخصص.

* * *

كان الراحل العظيم يشعر نحو من يجلسون معه بروح الأسرة الواحدة، فى مبادراته وتعليقاته وتوجهاته، ويستطيع بنفسه الصافية وكلماته الذكية وبديهته الحاضرة، أن يغرس فيهم ذلك الشعور أيضاً..! فهو مع طلابه ومرءوسيه أب بأر فى أبوته، وهو مع زملائه وأترابه أخ صادق فى أخوته..! يبادر الجميع بما يؤكد اهتمامه بجهودهم وأعمالهم

وتوجهاتهم، وحرصه على توثيق الروابط التى تجمعهم معه، فى العمل على بناء الإطار الفكرى الأصيل، لتخصص المكتبات والمعلومات فى وطننا...! أتذكر فى بعض لقاءاتنا المبكرة خلال الستينيات كلمات قليلة ولكنها جامعة، شدتنى فى حينها وماتزال تشدنى حتى الآن، أشار هو إلى أركانها الأولى وأكملتها بعده: شاءت إرادة الله أن تكون درجات الدكتوراه المبكرة فى تخصصنا من حظ ثلاثة، خلفياتهم الأكاديمية الأولى لغوية أدبية، وأن تكون ثلاثتها فى عامين متتالين عند بداية الستينيات، وأن تكون الغلبة فيها للمدرسة الأمريكية..! ولم تكد تمضى على هذه اللمحة الإطارية بضع سنوات، حتى توجت الثلاثة برابعة وخامسة وسادسة، لم يتغير بها الوضع كثيراً..! فالخلفية اللغوية الأدبية والمدرسة الأمريكية هما السائدتان حتى ذلك الحين..!

عرفت الفقيد وعرفنى لأول مرة أواخر الخمسينيات دون أن نلتقى، فقد كان أولنا على أرض الوطن لبعض الوقت، وكان الآخر فى بعثته بأمريكا، بل دون أن نتبادل أية رسائل..! وكانت مجلة (عالم المكتبات) التى أنشأها بمصر آنذاك الأستاذ حبيب سلامة، هى إحدى القنوات التى يمكن أن تكون أداة هذه المعرفة عن بعد..! وقد قرأت خبر صدورها بإحدى الدوريات المتخصصة الأمريكية، واشتركت فيها وقرأت المواد فى كل أعدادها، وأنا هناك، قبل عودتى أواخر (١٩٦١). وكان بين تلك المواد بأحد أعداد عام (١٩٥٩) تقرير مفصل، عن حلقة بيروت لتطوير المكتبات فى البلاد العربية، وكان الفقيد أحد البارزين بين حضورها، وله بحثه عن فهرسة الكتب العربية وتصنيفها. وأما معرفته هو غير المباشرة بى فقد كانت عن طريق هذه القناة نفسها آنذاك أيضا، كما حدثنى هو بذلك عند لقائنا فيما بعد..! ذلك أن الأستاذ حبيب سلامة صاحب (عالم المكتبات) وهى الدورية الأولى للتخصص فى الوطن العربى، حرص بعد اشتراكى فيها على تقديمى إلى قرائها فى مصر، كما نشر لى فى أعدادها وأنا بالخارج بضعة مواد، هى التى عرفتنى عن بعد إلى الراحل العظيم..! وهكذا كان ذلك الاتصال القرائى بيننا على البعد إرهاصاً مبكراً، لزمالة ثرية فى تخصص تعتبر القراءة أهم ثمراته وأجداها وهو المكتبات والمعلومات. وقد كان هو بطبيعته أكثر ميلا للعمل فى الجانب الميدانى للتخصص، دون أن يبخل على الجانب الأكاديمى بمبادراته الرائدة حتى الأيام الأخيرة فى حياته العامرة، وكانت هناك فراغات كثيرة فى الجانبين، تنتظر الفارس بل الفرسان

الذين يقومون بملئها، وقد كان هو أول أولئك الفرسان..!

* * *

كانت هناك مثلاً قواعد للفهرسة وخطط للتصنيف يطبقان فى دار الكتب المصرية منذ عشرات السنين، وكان أهل الدار فى الخمسينيات على علم بوجود قواعد وخطط أخرى أكثر ملاءمة. ولما أنشيء قسم المكتبات والوثائق فى كلية الآداب بجامعة القاهرة أوائل هذا العقد نفسه، تولى القادرون فى الدار تدريس كثير من مقرراته الفنية لبضع سنوات، فى حدود ما يطبقون من ذلك فى دارهم، وما وصل إليه علمهم فى الخارج. أما فى السنوات التى دعى فيها الدكتور الشنيطى لتدريس بعض هذه المقررات، فقد بادر بإجراء تحديث واسع النطاق للمحتويات فيما يقوم بتدريسه..! وفى هذا السياق قام متعاونا مع الدكتور أحمد كابش بتعريب الطبعة المختصرة من تصنيف ديوى العشرى، ليكون أداة فى أيدى الطلاب إلى جانب إتاحته للتطبيق الميدانى فى كثير من المكتبات. كما أسهم بقدر كبير فى وضع قواعد جديدة للفهرسة كانت ثمرة غير مباشرة لرسالة الماجستير، التى أعدها الأستاذ محمد المهدى أول المعيدين فى القسم آنذاك. وأصبحت هذه القواعد بدورها أداة عصرية فى أيدى الطلاب خلال الدراسة، ومعهم بعد التخرج حينما يتحملون مسئولية العمل الميدانى فى المكتبات...!

ومن الفراغات التى أشرنا إليها قبلا وجد الدكتور الشنيطى مثلا آخر، أن أوعية الدوريات فى مصر تعود إلى القرن التاسع عشر، دون أن تحظى بأدوات منظمة لتكشيف أعدادها الجارية، فضلا عن التراكمات الضخمة لأعدادها الماضية. وهى الأدوات التى نشأت وازدهرت فى بلد كالولايات المتحدة الأمريكية، لضبط المحتويات فى دورياتها منذ القرن التاسع عشر، وأصبحت فى الوقت الحاضر شبكة نموذجية فى شتى المجالات، بالإضافة إلى كشاف المواد فى أغزر اليوميات تغطية وأوسعها انتشارا هناك، وهى جريدة النيويورك تايمز. ومع أنه كان يدرك تماما منذ البداية التجريبية لمشروعه التكشيفى أواخر (١٩٦١) ، أن الأعمال الببليوجرافية بعامة والتكشيفية بخاصة، تتطلب إمكانات مادية وبشرية وتسويقية غير متوفرة حوله آنذاك، فقد كان فى هذه المواقف يؤمن دائماً بأن ما لا يدرك كله لايترك كله. وهكذا جمع حوله بعض أفراد الجيل الأول المتخرجين فى

القسم، وهيأ مقرا فى ميدان الفلكى بالقاهرة وبدأ المشروع الأول على المستوى العربى فى هذا المجال الدقيق، باسم (الكشاف التحليلى للصحف والمجلات العربية) وقد استمر لحوالى خمس سنوات (١٩٦٢-١٩٦٧).

ومن الطريف الآن فى سياق الإصدارة التجريبية لذلك المشروع التكشيفى، وكانت تغطى النصف الثانى من أكتوبر (١٩٦١)، أنها كانت بين موضوعات الحديث خلال اللقاء الأول لنا بعد العودة فى القاهرة..! كان ذلك بدعوة كريمة منه فى مكتبه بالجامعة الأمريكية، وكانت تلك الإصدارة أمامه فقدمها إلى لأتصفحها. وفى أثناء تتبعى لبعض بطاقاتها لفتت نظرى تكشيفة خبرية تحت اسم (انور السادات) تقول (زواج ابنتيه) ، أما البيانات الإرجاعية فقد سجلت بضع صحف صباحية ومسائية، ومعها بعض المجلات أيضا. ومع أن الحديث بيننا بشأن هذه البطاقة وإحالاتها قد تناول طبعا: من تكون الأم لهاتين الابنتين..!..؟ وهل هى الزوجة الحالية ..!..؟ أو هناك زوجة سابقة ..!..؟ وهل يقسم الوقت بينهما بالعدل..!؟ ولكن الحديث لم يلبث أن انتقل إلى تساؤل فنى من جانبى، وقد بدا على وجهه أنه كان يتوقعه ولعله كان يريد أن يبادرنى به بيد أنه انتظر ليستمع إليه منى..! ذلك أنه يكفى فى تكشيف الأخبار صحيفة واحدة بمشروع مستقل، وتكشف الدوريات العامة معا فى مشروع آخر، أما الدوريات المتخصصة فينبغى أن يكون لكل تخصص مشروعه الذى يكشف ما يرتبط به من دوريات..! وقد ختم هذا التساؤل المشترك من جانبه فقال: أردت ذلك فى البداية، ولكن الدراسة الاستطلاعية أكدت استحالته هنا..! ثم أردف: ياسعد..! فى العمل الميدانى ما لا يدرك كله لا يترك كله..! وقد بقى يذكرنى بها كلما التقينا وما أكثر تلك اللقاءات، فى سياق أى عمل فنى يواجه صعوبات التنفيذ..! بل لقد كنا نردد معا مثلا آخر: نحن فى عملنا على صواب يحتمل الخطأ والآخرون على خطأ يحتمل الصواب..!

* * *

إن هذين المثلين بل تلكم الأمثلة تفسر معا أمورا كثيرة فى سيرة هذا الرائد العظيم، وتتيح لنا تقدير عطاءاته فى سياقها الصحيح..! ولعل أهم التفسيرات وأجدرها بالتسجيل فى هذه الافتتاحية، هو إدراكه المبكر لأهمية الجانب المهنى والميدانى لتنمية أى تخصص

ناشىء، كتخصص المكتبات والمعلومات فى الوطن العربى، وأن عائد الجهود المبذولة فيهما أقوى فى تأثيره وأسرع فى نتائجه مما يبذل فى قاعات الدرس التى تعزل نفسها عن الواقع..! بل إن العائد الذى يمكن اجتناؤه من تلك القاعات يتبخر كله تدريجيا، فى البيئة الميدانية التى ماتزال فى مراحلها البدائية وشبه البدائية..! وقد حدث ذلك فعلا، ونعرفه نحن فى حالات كثيرة منذ الخمسينيات حتى الآن..! ومن هنا نلاحظ أنه فى الوقت الذى لم يبخل فيه على القسم الأم، بما تتيحه ظروف عمله الميدانية والمهنية وما أوسعهما بالنسبة له، نجده قد اهتم منذ بداية الستينيات اهتماما بالغا بملء الفراغات، التى تعرف على خريطتها فى مجالات المهنة وميادين العمل..! وتوجه إلى تلك الفراغات وبذل فيها كل ما يستطيع ماديا وفكريا، رغم بالغ الصعوبات التى كان يعرفها سلفا، وفى مواجهة التحديات ونقص الإمكانات المادية والبشرية والتسويقية، التى مايزال تخصصنا يعانيها حتى اليوم..! عرف ذلك الطريق وبقى يسير فيه حتى الأيام الأخيرة فى حياته، مؤمنا بأن هذا هو قدره مع هذا التخصص فى الوطن العربى..! وقد أشرنا قبلا إلى عينة من اهتماماته المهنية والميدانية، حيث استثمر فيها ما تهيأ له من الإمكانات البشرية متمثلة فى بعض طلابه وأترابه، وغير قليل من الإمكانات المادية التى تطوع بها من جيبه الخاص..!

وهناك غير تلك العينة من الاهتمامات الميدانية والمهنية كثير، لا مجال لاستعراضه فى هذه الافتتاحية..! وإنما تبقى واحدة من مبادراته المبكرة لابد من الإشارة إليها فى هذا السياق. ذلك أنه كانت توجد تجمعات مهنية عقب الحرب العالمية الثانية، للعاملين فى المكتبات بكل من القاهرة والإسكندرية. وحينما حضرت إلى مصر الخبيرة الأمريكية (آثل م. فير) أواسط الخمسينيات، للعمل بإحدى المؤسسات الأمريكية فى مدينة القاهرة، انتهزت فرصة وجودها واتصلت بتلك التجمعات وشجعت أصحابها على إنشاء أول جمعية مصرية للمكتبات. وقد اهتم الدكتور الشنيطى بتلك الجمعية التى تأسست عدة مرات خلال ثلاثة عقود أو أربعة، وكان رئيسا لها فى بعض تلك المرات، وكان هدفه المبكر لهذا الاهتمام بالجمعية، هو أن تصبح الجهاز التشريعى الذى تصدر عنه أدوات العمل المعيارية للتخصص. وقد صدر عنها فى سياق هذا الهدف (مداخل المؤلفين العرب) له مع الأستاذ عبد المنعم السيد فهمى عام (١٩٦١) ، وكذلك (قواعد الفهرسة

الوصفية للمكتبات العربية) له مع الأستاذ محمد المهدى عام (١٩٦٢) . وكان يعرف أكثر من غيره الضعف الذاتى فى هذه الجمعية، فأنشأ هو ما يمكن اعتباره البديل الثانى باسم (المكتبة العربية)، وهى التى صدرت عنها أيضاً عدة مطبوعات فى نطاق هذا التخصص، كان بينها بضعة أعداد لمجلة بالاسم نفسه لم تعش طويلا..! ومع ذلك فقد تشرفت بالكتابة فيها مرتين على الأقل..!

لقد كانت خريطة الفراغات فى تخصص المكتبات والمعلومات بالوطن العربى، ممكنة لكل من درسوا فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى ولو لعامين اثنين فقط، وكانوا فى أواخر الخمسينيات بمصر يبلغون ثلاثة أو أربعة، وازدادوا تباعا حتى بلغوا فى أواخر الستينيات تسعة أو عشرة..! وكانوا جميعا باستثناء الدكتور الشنيطى يعملون فى أجهزة الحكومة المصرية، فهل كان ذلك وحده هو الذى جعله يتصدى أكثر منهم لملء تلك الفراغات..!..؟ قبل الإجابة عن هذا التساؤل، ينبغى أن ندرك الفرق بين النجاح المهنى فى مجتمع تقليدى كمصر، ومجتمع تقدمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية..! يحتاج النجاح فى مهنة ناشئة بالمجتمعات التقليدية إلى مساندة حكومية قوية، يبذلها أصحاب المهنة، وهم فى مواقعهم بالجهاز الحكومى، بينما الأمر يكاد يكون على العكس تماماً فى المجتمعات التقدمية، ولاسيما المجتمع الأمريكى..! ومع ذلك كان الدكتور الشنيطى دون مساندة حكومية، هو الذى أحس بهذه المسئولية قبل غيره وأكثر من غيره، وعمل مسرعاً على سد الفراغات لحوالى عشر سنوات منذ أواخر الخمسينيات حتى أواخر الستينيات..! إن ذلك كما قلنا سابقا يرجع إلى صفات ذاتية فيه، جعلته يؤمن بأن قدره مقسوم لهذا التخصص فى جانبه المهنى والميدانى وهو الأهم، حتى ولو كان بعيداً عن الأجهزة الحكومية ذات الشأن فى هذا الصدد..!

* * *

وفق الله المسئولين أخيرا عام (١٩٦٨) فعرضوا عليه فى الجهاز الحكومى، أعظم المواقع الميدانية والمهنية ليس فى مصر وحدها، وإنما فى الوطن العربى كله، وهو دار الكتب المصرية التى ناهزت آنذاك القرن الأول من حياتها المباركة..! ولم يتردد فى قبول المنصب برغم أن دخله يقل كثيرا عما كان فيه قبلا، وبرغم أن الدار فى ذلك الوقت

بدأت تدخل مرحلة الشيخوخة، بانتهاء سلسلة المديرين العظام قبلا، ومن ثم انتقاد الاهتمام الثانى من جانب الدولة بهذه المؤسسة العريقة..! ومن الأمارات الواضحة على ذلك، أن المبنى الجديد الذى تقرر للدار قبيل الحرب العالمية الثانية أواخر الثلاثينيات، كان وضع حجر الأساس له على عهد الرئيس جمال عبد الناصر عند بداية الستينيات، ولم تكن قد بدأت تشطيباته النهائية المعقدة، حتى عندما تولى الدكتور الشنيطى أمر الدار، وقد أوشكت أن تصل إلى عيدها المئوى الأول..! هنا فى هذا الفاصل الزمنى الحاسم يأتى راحلنا العظيم وكأنه على موعد مع قدره وقدر الدار ذاتها..! وهنا أيضا تتجلى روعة التفكير الإطارى الذى تميز به بين أترابه، وروعة التوقيت الصحيح لوضع المشروعات التاريخية الكبرى وليدة هذا التفكير..!

هذا مبنى عصرى فى موقع رائع، قد تستولى عليه بعض الجهات ذات النفوذ فى الحكومة أو القطاع العام، فلنسرع باستلامه ولننتقل إليه حتى قبل اكتمال التشطيب..! ثم هو مبنى جديد، تحظى به الدار فى بداية قرن جديد لها، فلماذا لا تولد فيه الدار من جديد، نقية تماما فى كل شىء..! إلخ..! لعلى فى ذلك أقرأ ما كان يدور فى ذهن صاحب التفكير الإطارى، وهو يجتاز مع الدار عتبة الزمن بين قرنين فى حياتها..! ولعلنا بهذه القراءة للماضى نضع أيدينا الآن للمرة الثانية فى هذه الافتتاحية، على شواهد هذا الاهتمام عند راحلنا العظيم بالأهمية الكبرى للعمل المهنى والميدانى..! وهكذا رأى صاحب التفكير الإطارى الرائع والرؤية المهنية الميدانية الثاقبة، أن ينتقل بالدار من مكتبة تقليدية دبت الشيخوخة فى مفاصلها، وتحمل فى خلايا جسمها بعض الأدواء الفنية الخطيرة، إلى وليدة ناضجة فى أواخر القرن العشرين تفيض قوة وحيوية..!

أعلن مشروعه الأكبر لإصدار الفهرس المئوى للدار، الذى ينبغى أن يتجاوز فى تغطيته ونظامه، كل ما أصدرته الدار من فهارس القرن التاسع عشر، وفهارس القرن العشرين، التى تبلغ معًا أكثر من عشرين مجلدا..! ورأى أن يتم ذلك بإعادة الفهرسة لجميع المقتنيات، ليكون الفهرس المأمول مسايرا لأحدث القواعد ولأشهر الخطط التصنيفية..! وإذا كانت مكتبة الكونجرس الأمريكية وهى الأقدم والأضخم بدأت عصر التحسيب للفهارس آنذاك، فعلى دار الكتب المصرية أن تدخل هذا العصر أيضا..! ومن ثم بدأ التخطيط للمشروع الأخطر، وهو اختزان هذا الفهرس المئوى بالحاسب الآلى، ليتم

إصداره بعد ذلك بهذه التكنولوجية العصرية الحديثة..! وهناك رسالة للماجستير أجيزت فى القسم الأم للتخصص خلال السبعينيات، تناولت هذا المشروع التكنولوجى التاريخى، إلى جانب بعض التقارير الفنية المتخصصة التى أعدت بشأنه فى التمانينيات...! وأدعو الله إلا تكون قد ضاعت كما ضاع غيرها، من الأوراق التوثيقية الثمينة لعمل أصبحت قيمته التاريخية هى الأهم..!

* * *

قراؤنا الأعزاء ..! لم نكتب «ذكريات الطريق» فى هذه الافتتاحية، لتكون سجلا كاملا لعطاءات الراحل العظيم ومشروعاته التنموية فى التخصص، ولكنها نمط من الانطباعات الفنية المتخصصة ماتزال عالقة فى الذهن..! ولقد كان دخول الدكتور الشنيطى وأعماله فى الدار لعشر سنوات بل أكثر، ملحمة لا تنسى فى مسيرتها ومسيرته هو ومسيرة تخصصنا الوليد بالوطن العربى.. ونحن الآن فى التسعينيات بعد حوالى عشرين عاماً، مانزال نعيش الترحيب الكبير الذى قابلنا به ذلك الدخول، والترقب والاهتمام والآمال العريضة التى كانت تغمرنا، مع البداية لكل واحد من مشروعات التنمية والتطوير والإضافة فى ألدار بخاصة، وفى المؤسسة كلها بعامة؛ حينما انضم إليها قطاع النشر..! ولقد كانت تلك السنوات العشر أيضاً فترة استثنائية فى حياة الدار، بالنسبة لدوائر الفكر والثقافة خارج التخصص، وبالنسبة للرأى العام الأوسع كذلك..! ذلك أن السمات الذاتية التى عرفناها قبلاً، فى شخصية الدكتور الشنيطى من خلال أعماله خارج الجهاز الحكومى، وجدت فى هذا الموقع الرسمى العريق البيئة المثلى ، لكى تزدهر وتثمر وتجود بأحسن عطاءاتها، ولاسيما بعد أن أصبح ذلك الكيان الكبير لقطاع النشر أحد التوابع للدار الأساس فى «الهيئة» منذ عام (١٩٧١)..! وتبارت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى تقديم المواد، التى تألق فيها الدكتور الشنيطى وتألقت معه دار الكتب المصرية قبل أى شىء آخر..!

نعم..! قارنت فى انطباعاتى الفنية المتخصصة وهى نسيج هذه الافتتاحية، بين «الدار» التى كانت خلال السبعينيات، تتولى فى بيتها تحسيب فهرسها المئوى، مع تلك التى أصبحت فى بداية التسعينيات تلهث وراء جهة خارجية، لتظفر بتحسيب هابط المستوى لشريحة محدودة من الفهرس الأكبر..! ونعم أيضاً..! لقد تدهورت الدار وبلغت أدنى

المستويات فى حياتها الطويلة، وهى تنفصل عن تلك «الهيئة» فى غضون عام (١٩٩٣). ولكن ذلك الانهيار لم يكن أبداً فى عهد الدكتور الشنيطى، وبرغم أن الإدماج كان هو السبب غير المباشر للوضع الذى انحدرت إليه الدار..! كنا جميعاً وكان مجتمع المفكرين والباحثين والمثقفين وكان قبلنا الدكتور الشنيطى نفسه، حين نكون فى ذلك المبنى الكبير على كورنيش النيل، حتى بعد أن وضعوا على مدخله التسمية الجديدة ـ كنا نتنفس دائماً جوّ المكتبة القومية الكبرى، التى استضافت فى الموقع الخلفى للمبنى كياناً تجارياً تابعاً لها، بمكاتبه وأجهزته ومطابعه.. إنّ هناك ملاحظات منهجية كثيرة غير ما تتضمنه الفقرات الخمس الأخيرة فى هذه الافتتاحية، تؤدى بأى باحث منصف كما أدت بى إلى فرض علمى له ما يبرره، وهو: إن فترة الانضمام التى جمعت «الدار» إلى «قطاع النشر» فى كيان واحد وتبلغ ثلاثة وعشرين عاماً، تنقسم إلى مرحلتين مختلفتين تماماً. أولاهما ـ فترة السبعينيات فى عهد الشنيطى، وكانت الدار خلالها فى عمليات متكاملة من التنمية والتطوير. ثانيتهما ـ فترة الثمانينيات وبداية التسعينيات فى عهد من جاءوا بعده، وكانت الدار خلالها فى مرحلة انحدار تزايدت سرعته سنة بعد أخرى..! وإن من حق هذا الفرض أن يتم التحقق بالنسبة لمضمونه إيجاباً أو سلباً بمنهج علمى دقيق، فى شكل رسالة جامعية تضاف إلى عدة رسائل تناولت الدار قبلاً، وتدعم اقتراحى الأسبق فى مستهل هذه الافتتاحية..! فهكذا يكون أداء الحقوق للراحل العظيم يرحمه الله..!

* * *

إن الحديث ليطول ويطول حول فقيدنا العظيم وعطاءاته الفريدة، ولن تستطيع المادة فى الافتتاحية الحالية أن تفى بحقوقه كلها ولا بعضها مهما امتدت..! وحسب القراء منها أنها تحية صادقة مخلصة من أسرة (عالم الكتاب) تقدمها إلى روحه الطاهرة، فى عددها السنوى التذكارى الخاص، الذى يواكب معرض القاهرة الدولى للكتاب..! والكتاب بمفهومه الأوسع وبمؤسساته البارزة كان كما عرفنا، هو المحور الذى دارت فى فلكه عطاءات الدكتور الشينطى وأعماله، على امتداد أكثر من نصف قرن فى حياته المباركة..! وقد رأت أسرة المجلة أيضاً، أن تمتد هذه التحية الصادقة من جانبها فتشمل كذلك، مادتين إضافيتين لكل منهما وزنها فى هذا السياق..! أولاهما كانت كلمات تكريمية غالية ألقيت فى تأبين الفقيد العظم بعد رحيله، والأخرى عمل توثيقى تم إعداده بعناية غير مسبوقة..!

أما، كلمات التأبين، فقد استمع إليها مساء السبت (١٩٩٥/٦/٣) جمع كبير جداً من طلاب الفقيد وأترابه وأحبابه وعارفى فضله وما أكثرهم، فى واحد من أكبر المدرجات بكلية الآداب جامعة القاهرة، وهى التى تخرج فيها الفقيد، كما أصبح أستاذاً غير متفرغ بها طوال السنوات الثلاث الأخيرة فى حياته..! كانت الكلمة الأخيرة لأسرة الفقيد التى كانت فى مقدمة الحضور، وكانت الكلمة الأولى لرئيس الجامعة الذى ترجع معرفته بالفقيد إلى مراحل الصبا، وبينهما تتابعت الكلمات: لنائب رئيس الجامعة، ولعميد الكلية، ولوكيل الكلية، ولرئيس قسم المكتبات والمعلومات، ولطالب فى الدراسات العليا بالقسم.

وأما «العمل التوثيقى» فقد تولاه واحد من أبرّ طلاب الفقيد وأقدرهم على أداء هذا الواجب، حتى لقد أصبح بالنسبة لهذا النمط من الأعمال هو المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه..! ويكفى أن مادة هذا العمل وحدها تستغرق عدداً من الصفحات يساوى أو يزيد على مجموع عدد الصفحات فى باقى الملف كله..! بل لعلها المرة الأولى التى قد لا تتكرر، فى توثيق المسيرات الشخصية للراحلين وأعمالهم، أن تشتمل القائمة على كل هذه الأنواع من البطاقات الببليوجرافية..! إنها حقا هدية توثيقية نادرة..! تقدم إلى رائد فى الكتب والمكتبات يستحقها..!